الإمبريالية ضد حركة القومية العربية والحركات الاشتراكية فى العالم العربى.

* * *

الماركسية والصهيونية

فى مقدمة كتاب [1] « العداء للسامية والمسألة اليهودية » الذى أسلفنا الإشارة إليه من تأليف ا . ريناب يقدم وليام جلاشر ، وهو يهودى بريطانى ماركسى ، للكتاب فيقول إن العداء للسامية ليس له مصدر إلا متناقضات المجتمع الرأسمالى أو البورجوازى ، وهو ليس إلا نوعا من الاضطهادات العديدة التى فى هذه المجتمعات .

ولكن المجتمع الاشتراكى يلغى الاضطهادات ويقيم أسسه على التكافؤ والمساواة والاشتراكية ، وهو يهدم كافة التناقضات والاضطهادات ، ومنها اضطهاد اليهود ، ومن ثم فليست هناك مسألة يهودية فى المجتمع الاشتراكى .

ويرى جالاشر أن اليهودى ينبغى أن يحول جهده لا إلى تأسيس دولة فى فلسطين وطرد أهلها العرب منها واضطهادهم فيها ، بل إلى

(١) " Anti - semitism and the Jewish Question" by I. Rennab.

الانضمام إلى الطبقات المضطهدة الأخرى فى المجتمعات التى يعيش فيها اليهود ، وخلق جبهة قوية اشتراكية ضد الرأسمالية والإمبريالية والبورجوازية، وهى النظم التى تقوم على الاضطهادات وتقسيم الطبقات واستغلال المضطهدين .

وفى كتاب « دولة إسرائيل . مركزها وسياساتها » الذى أصدره الاتحاد السوفيتى ، يرى المؤلفان أن الحركة الصهيونية تمثل شكلا من أشكال الإيديولوجية القومية للبورجوازية اليهودية الغنية ، المرتبطة بشكل وثيق بالإمبريالية والاضطهاد الاستعمارى لشعوب آسيا وأفريقيا . إن الصهيونية وقد ربطت نفسها بالرأسمالية الأمريكية والغربية ، وبالتكتيكات الإرهابية اليهودية ، هاجمت الدول العربية المجاورة لإسرائيل ، وهددت الحركة الليبرالية القومية لشعوب الشرق الأوسط . ولا جدال أن واجب الماركسين يقضى فى هذا الموقف بمساعدة شعوب آسيا وإفريقيا على سحق القوى اليهودية الرجعية.

وتتناقض الحركة الاشتراكية والحركة الصهيونية ، لأن الصهيونية تعتمد فى دعم إسرائيل على فقراء اليهود. وكان هرتزل [1] مؤسس

(١) تيودور هرتزل (١٨٦٠ – ١٩٠٤) يهودى مجرى المولد ، عمل صحفيا ومراسلا لمجلة Neu Frei من باريس وعاصر القضية المعروفة باسم قضية دريفوس أو « القضية L' Affaire » والتى بسببها قال أنه رأى أن اندماج اليهود فى مجتمعاتهم مستحيل وبدأ يفكر فى إيجاد حل للمشكلة اليهودية ، وفى =

الصهيونية يرى فى البروليتاريا اليهودية المتوفرة فى العالم عنصرا أساسيا من عناصر تكوين إسرائيل ، فبينما يرى تحرير البروليتاريا اليهودية فى العالم بتوطينها فى إسرائيل، ترى الماركسية والاشتراكية أن تحرير البروليتاريا عموما هو فى تحرير المجتمعات من سيطرة

= سنة ١٨٩٦ نشر كتابه « الدولة اليهودية » ولم تكن ثقافته ثقافة يهودية ومن ثم لم يختر فلسطين أرضا للدولة اليهودية ولم يطالب بأن تكون العبرية لغة الدولة ، ولكن حركة عشاق صهيون التى أسلفنا الحديث عنها أصرت فى المؤتمر الصهيونى الأول سنة ١٨٩٧ على اختيار فلسطين ، وتحدث هرتزل عن استعمار قبرص أو العريش أو أوغندا » ولكن الاجتماع كان عن فلسطين . وأسس هرتزل صحيفة للمؤتمر « Die Walt العالم » والشركة اليهودية للتعمير ، وفاوض السلطان عبد الحميد وبريطانيا وألمانيا وروسيا ، وكتب رؤياه فى كتاب « الأرض القديمة الجديدة » سنة ١٩٠٢ وتركه وصية للحركة ، وعرضت بريطانيا عليه أوغندا ، وقبل هرتزل ولكن اليهود عارضوه ، وكان أقواهم معارضة وايزمان أول رئيس لدولة إسرائيل ، ولم يتحمل هرتزل صدمة فشله ومات بالقلب سنة ١٩٠٤ ودفن بفينا ونقلوا رفاته سنة ١٩٤٩ إلى القدس بعد قيام دولة إسرائيل .

أما دريفوس فكان ضابطا يهوديا فرنسيا اتهموه بالتجسس لألمانيا وسجن ، ولكنهم اكتشفوا براءته بالصدفه وأثيرت قضيته من جديد وشغلت الرأى العام الفرنسى وكتب أميل زولا إنى أتهم J'accuse سنة ١٨٩٨ ووجه خطابه إلى فيلكس فور رئيس الجمهورية ونشره فى صحيفه الفجر، وقدم المفكرون عريضة لرئيس الجمهورية وقعها ٣٠٠٠ شخص منهم أناتول فرانس ومارسيل بروست تطالب بإعادة النظر فى القضية .. وفى ١٨٩٩ استقدم دريفوس من جزيرة الشيطان وقدم إلى المحاكمة من جديد وبرئ وأعطى وسام الليجيون دونير . (الحفنى)

الرأسمالية والبورجوازية والإمبريالية .

ويذكر تيودور هرتزل أن اليهود الموسرين سيجدون فى قيام إسرئيل خلاصا من البروليتاريا اليهودية التى سيساعدونها على الهجرة إلى إسرائيل . ويذكر أن التجارب قد برهنت على أن الضغط السكانى اليهودى ينعكس على ردود الفعل ضد يهود الطبقة الوسطى ، لذلك تعمل الصهيونية على إزاحة القطاعات اليهودية الفقيرة من بلادها لإتاحة فرص أكثر أمام الأغنياء لكى يعيشوا حياة هادئة مطمئنة ، فيما لو وقع اختيارهم على البقاء فى بلدانهم الأصلية.

وتؤدى هجرة اليهود الفائضين أيضاً إلى تخفيض نوعين من التنافس الذى يواجهه أغنياء اليهود : التنافس الكامن الذى قد يبرز من جراء قيام قطاع من البروليتاريا اليهودية برفع نفسه إلى مستوى الطبقة الوسطى ، والتنافس المسيحى . فالنوع الأول سوف يحد منه ، إن لم يتم منعه ، كنتيجة للهجرة . أما التنافس الثانى فسوف يتضاءل لأن المسيحيين سيشعرون بالارتياح عندما يخف الضغط اليهودى فى المجتمع . وبناء عليه سوف يشعرون بدرجة أقل بوجود منافسيهم من اليهود ، ويتوقعون فى الوقت نفسه أن يتناقص عددهم طالما ستتتابع

عملية الهجرة ويستمر سيرها [1] .

فهناك إذن تحالف بين الصهيونية والبورجوازية اليهودية والعالمية عموماً ضد البروليتاريا اليهودية بقصد تهجيرها وتخليص المجتمعات منها لصالح البورجوازيتين ، وهو ما يتناقض كل التناقض مع الحركة الاشتراكية العالمية .

ويحاول هرتزل إقناع الرأى العام العالمى بحسنات قيام دولة إسرائيل ، فيقول إن الهجرة البروليتارية اليهودية سوف تؤدى إلى قيام هجرة مسيحية لملء المراكز الشاغرة ، ويقول إن الأسواق اليهودية فى مرحلة متأخرة من مراحل الحركة القومية اليهودية ستصبح تحت تصرف الطبقة الوسطى المسيحية فتضعف المنافسة اليهودية كلما ازداد عدد يهود الطبقة الوسطى الذين تجتنبهم أسواق الدولة اليهودية النامية . هكذا تظهر بوضوح الصلة المباشرة بين إنجاح الفكرة القومية اليهودية وبين مصلحة الطبقة الوسطى المسيحية فى أسواقها الخاصة .

ويقول هرتزل إن زيادة الهجرة اليهودية تزيد الفرص أمام التوظيف والاستخدام المسيحى ، وستسعى العمالة المسيحية لملء

(١) ص ١٦ عوامل تكوين إسرائيل بقلم إنجلينا الحلو منشورات منظمة تحرير فلسطين – مركز الأبحاث .

مراكز العمل اليهودية الشاغرة فى البلدان المسيحية ، وستحول دون هجرة هذه الطاقة إلى بلدان أجنبية سعيا وراء الوظيفة والعمل . وكذلك سوف يحتاج المستوطنون اليهود ، وخاصة خلال المراحل الأولى لنموهم القومى إلى كل من البضائع الاستهلاكية والمنتجة التى يترتب عليهم استيرادها من الأسواق الأوروبية . وهنا يجب الاعتماد على عنصر الطلب هذا فى توسيع الأسواق ، وبالتالى فى إتاحة المزيد من الفرص أمام المسيحيين . وقد يعمد اليهود المستوطنون خلال مرحلة متأخرة من تطورهم إلى توجيه رساميلهم المتراكمة لتوظيفها فى البلدان التى هاجروا منها . ويقول هرتزل بهذا الصدد « سوف يبتهج الرأسماليون اليهود لتوظيف أموالهم فى الأماكن التى يألفون أحوالها السائدة ، وبينما نجد المال اليهودى الآن يتم إخراجه من البلدان بسبب الاضطهاد القائم وإغراقه فى المشاريع الغربية النائية ، فإنه سوف يعود ليتجه مجدداً صوب بلدان العالم الغربى من جرّاء هذا الحل السلمى ، وسوف يساهم بدوره فى رفع مستوى تلك البلدان التى بارحها اليهود » .

ووعد هرتزل بأن تكون الدولة اليهودية لصالح أوروبا ، وممثلة للحضارة الأوروبية فى الشرق الأوسط ، حيث سيكون اليهود فى إسرائيل جزءاً من السد الأوروبى فى وجه آسيا ، ومركزا طليعيا

للمدنية ضد البربرية [١] ، أى بمثابة معرض قائم دائم لخدمة المصالح الأوروبية[٢] .

(هذا التحالف الصهيونى الإمبريالى ، لا يعنى بالنسبة للصهيونية تحقيق دولة إسرائيل فقط . وفى ذلك يقول بن جوريون [٣] فى ١٣ أغسطس سنة ١٩٤٨ « إننى أعتبر المقدمة الكبرى الرئيسية فى صميم تفكيرنا بأجمعه، لابل فى حركتنا وسياستنا، ما يلى : أن الدولة ليست هدفا فى حد ذاتها ، بل هى وسيلة إلى هدف . والهدف هو الصهيونية [٤] ، والصهيونية تعنى دائما توسيع رقعة الأرض ، والغزو والاستيطان، ووسيلتها إلى ذلك الإحياء التاريخى العسكرى، فإذا كانت دولة إسرائيل على الدوام فى حالة حرب ، فإن ذلك يرجع إلى كون إسرائيل بالواقع دولة حرب ، وليس المفهوم المتطور لإنشاء ما يسمى فى إسرائيل بالجندى المستوطن سوى إحدى الوحدات التى تمثل عملية الاستعمار الصهيونى بأجمعها ، يعنى لا تعدو سياسة تجميع المنفيين كونها دعوة لتكثير وحدات المستوطنين الجنود ومضاعفة عددهم » . وقد خاطب ليفى أشكول رئيس وزراء إسرائيل أعضاء

(١) المصدر السابق ص ٢١ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٥ .
(٤) بن جوريون يتطلع إلى الوراء (بيرلمان نيويورك)

المجلس الصهيونى العام المنعقد فى القدس فى مارس سنة ١٩٦٤ فقال :

« ينبغى علينا منذ الآن أن نرسم الخطط للمليون الرابع والخامس . من أين ومتى يأتون ، وماذا سيكون مصير الشعب اليهودى فى الشتات ؟ ولكى تتمكن إسرائيل من الاستمرار فى تأدية رسالتها يجب أن يكون هناك توسع دائم فى سكانها . غير أن المسألة ليست مجرد إيجاد ثلاثة ملايين أو حتى خمسة ملايين يهودى فى الدولة ، فمهمتنا لا تنتهى عند هذا الحد ، وهذه ليست نهاية الرؤيا الصهيونية » إن رسالتنا التاريخية تتحقق بالوجود والقوة »[١] . وهكذا تغدو مسألة تحقيق « **الرسالة الصهيونية** » وتأديتها مشروطة بـ « الوجود » و« القوة » ، أى الاستيطان والقوة العسكرية ، وهما اللذان يعتمدان بدورهما على معدل الهجرة .

إن المهمة القومية التى تضطلع بها دولة إسرائيل - ألا وهى جمع شتات الجاليات اليهودية المبعثرة فى العالم وتهجيرها إلى إسرائيل - إن تلك المهمة تستدعى هجرة متصلة تستمر على الأقل لمدة جيل واحد (٣٠سنة) ، وعلى الدولة الإسرائيلية أن تؤمّن الأحوال الطبيعية لحياة

(١) عوامل تكوين إسرائيل السياسية والعسكرية والاقتصادية ص ٣٩ .

هؤلاء السكان من المهاجرين .. ولذا فإن مهمتنا هى احتلال الأراضى العربية وتوطيد سيطرتنا عليها ، ووضع ثرواتها المادية فى خدمة اليهود فى إسرائيل »[1] .

« النقب وجزيرة تيران وجزيرة صنافير وشبه جزيرة سيناء ومنطقة قناة السويس : إن امتلاك إسرائيل لهذه المناطق سيؤمّن لنا استخداما غير محدود النطاق لخليج العقبة وميناء إيلات ، وسيضع فى خدمتنا الموارد البترولية التى ستمدنا بسبعين ألف طن من البترول سنوياً ، كما سيمكننا من استخدام الإمكانيات التجارية التى تنطوى عليها قناة السويس . إن تلك الإمكانيات يجب أن تدر علينا ما بين ١٠ و ٢٠ مليون دولار سنويا ، بينما سيدر علينا ميناء إيلات ١٠ مليون دولار سنوياً . وإن حربا يجب ألا تدور أكثر من ثلاثة أشهر على أكثر تقدير هى حرب شأنها أن تتفق وتنسجم مع متطلبات إسرائيل الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية . لذا يجب أن يضع الجيش الإسرائيلى خطة يمكن لإسرائيل أن تنهى بها الحرب فى خلال مدة الأشهر الثلاثة »[2] .

---

(١) دولة اسرائيل : ك . ايفانوف . ص ٤٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٩ وعوامل تكوين إسرائيل ص ١٠٩

من ذلك نرى أن الفلسفة الاقتصادية للصهيونية فلسفة تتنافى مع المبادئ الاشتراكية التى لا تؤمن بالحرب ولا تقوم على التوسع والغزو . وهى فلسفة تقوم على إخضاع العمال للسيطرة العسكرية ، ونواتها « الجندى - العامل » ، ويتم بواسطتها تحويل البروليتاريا اليهودية إلى وضع مستقر ، أى تصفية التصورات الاشتراكية فى عقول الطبقات اليهودية العاملة . وفى الاشتراكية يكون دور ا لتجديد الاجتماعى من نصيب طبقة خاصة هى البروليتاريا ، بينما يبدو أن هذا الدور قد أعطى للهستدروت فى الصهيونية التطبيقية أو ما دعوناه بالاشتراكية العنصرية . فالهستدروت كطبقة خاصة فى حد ذاتها ، برزت بمثابة العمود الفقرى لاقتصاد الحركة الصهيونية وطليعة البناء الصهيونى . ويعرف بن جوريون الهستدروت كالآتى :

« ليست الهستدروت نقابة عمالية ، ولا هى حزب سياسى ، ولا هى تعاونية أو جمعية لتبادل المنفعة ، مع أنها تقوم بنشاط فى جميع هذه الحقول . إنها أكثر من كل ذلك . الهستدروت هى اتحاد شعب يقوم ببناء موطن جديد ودولة جديدة وشعب جديد ومشاريع ومستوطنات جديدة . وحضارة جديدة . إنها اتحاد للمصلحين الاجتماعيين لا تعتمد جذوره إلى بطاقة العضوية الخاصة ، بل إلى المصير المشترك

والمهمات المشتركة لجميع أعضائها فى الحياة وفى الموت »[1] .

وهكذا نجد أن الهستدروت تمثل العنصر الأساسى فى النظام الاقتصادى الناشئ للدولة الصهيونية ، فهى تمثل الطبقة التى تزود ذلك النظام بإطاره التركيبى . وعلاوة على ذلك تعكس الهستدروت عنصر القوة الذى يسيطر على إسرائيل الآن ، وقد يتوصل إلى حكم الدولة اليهودية . ولكن الحكومة مع ذلك تحتل المرتبة الأولى . وتسيطر على النظام الاقتصادى والحكومة معا الاعتبارات العسكرية ، وعندئذ تبدو الاشتراكية المطبقة فى الهستدروت والمزارع الجماعية الإسرائيلية (الكيبوتز) بمثابة أداة لخدمة الأغراض التوسعية لإسرائيل . ورغم ما يبدو من وجود عدد من الأحزاب السياسية فى إسرائيل ، وما يظهر من ذلك من دلائل ديمقراطية ، فإن الهستدروت تمثل الجهاز التوتاليتارى (جهاز الحزب الواحد) ، الذى يضم كل الأحزاب ويسيطر على الفكر الأيديولوچى للحكم فى إسرائيل ، فالهستدروت إشتراكى الشكل ، عنصرى المضمون : إنه جهاز نازى آخر لخدمة أغراض الدولة التوسعية العنصرية والعسكرية .

إن الفلسفة الاقتصادية الصهيونية فلسفة ضد الاشتراكية .

* * *

(١) الحركة العمالية فى إسرائيل ص ١٨٣ وعوامل تكوين إسرائيل ص ١٣٥ .

برونو باور

ولقد كتب **كارل ماركس** فى المسألة اليهودية . وكان من الطبيعى أن يكتب فيها ، فسيجموند فرويد [١] ، المفكر النفسى اليهودى ، كتب فيها ، وكذلك **أينشتين** المفكر العلمى .

وكارل ماركس ، من أصل يهودى ، وداجوبيرت رونز مترجم مقال **المسألة اليهودية** لكارل ماركس ، انتقد ماركس بشدة ، لأنه رغم يهوديته ، تحامل على اليهود . والمسألة اليهودية مسألة عالمية ، جرّت إلى الكتابة فيها كثيراً من المفكرين ، ومنهم **برونو باور** .

وباور[٢] مفكر ألمانى شغلته النواحى الدينية وكتب كثيراً فى المسيحية ، وهو ملحد ويروى أن المسيحية ديانة مفهومها هيللينى (أى مفهوم يستمد أصوله الفكرية من الثقافة اليونانية) وليس يهوديا . وكان باور من الهيجيليين ، وفصلته الحكومة الألمانية من منصب الأستاذية فى الجامعة لأرائه الإلحادية .

وكتب باور فى **المسألة اليهودية** ، وتساءل عن حقيقة الدعوة اليهودية التى تطلب تحرير اليهود من الاضطهاد السياسى ، و من

(١) Moses and Monotheism : Sigmund Freud.
ترجمة دكتور عبد المنعم الحفنى بعنوان : (النبى موسى ورسالة التوحيد) .

(٢) دائرة المعارف البريطانية الجزء الثالث .

الحرمان من الحقوق السياسية فى ألمانيا .

ويرى باور أن الاضطهاد الذى يعانيه اليهود ، هو اضطهاد يعانيه المجتمع الألمانى كله ، لأن الدولة مسيحية الجوهر ، وينبغى فصل الدولة عن الدين ، وتأمين علمانية الدولة ، وأن يعمل اليهود على نقد المسيحية واليهودية معا ، وتخليص الدولة منهما : لتقوم الدولة العلمانية مثل الولايات المتحدة الأمريكية .

* * *

كتاب ماركس

وانتقد ماركس كتاب باور ، لأن المشكلة ليست مشكلة الديانة المسيحية أو اليهودية ، ولكنها مشكلة الاضطهاد الاجتماعى المتمثل فى سيطرة الرأسمالية والبورجوازية على الفكر السياسى وبناء الدولة ، وعندئذ يكون واجب المواطن فى الدولة الكفاح من أجل إلغاء سيطرة المال على الدولة وعلى المواطن . ويرى ماركس أن مضمون الديانة اليهودية الضرورة المادية والمتاجرة ، وأن إله اليهود الدنيوى هو المال . وتحرير اليهود يكون بتحريرهم من المال ، من اليهودية ، أى يكون بتحرير المجتمع من سيطرة المال والمتاجرة ، وتنظيم المجتمع بحيث تُلغَى الشروط السابقة لقيام المتاجرة بالربا ، وبالتالى تلغى إمكانية

المتاجرة بالربا : إن هذا الإلغاء يجعل وجود اليهودى واليهودية مستحيلا . والمال هو جوهر المجتمعات الرأسمالية والبورجوازية وحياة الإنسان وعمله ، عمله الذى اغترب عنه وهذا الوحش هو الذى سيطر على الإنسان الآن ويستعبده .

ألغوا هذه المتاجرة ، وقوّضوا سيطرة المال على المجتمعات ، تنحل المسألة اليهودية بالنسبة لليهود ، وبالنسبة للمجتمعات التى تشكو من اليهود كظاهرة مرضية ، والتى من أجلها قامت حركة العداء للسامية واضطهاد اليهود .

هذا هو موجز فكر كارل ماركس ، ودلالاته هي نفس الدلالات التى تحدثنا عنها فى الحل السوفيتى للمسألة اليهودية ، وفى تصادم الاشتراكية والصهيونية : أن على المجتمعات الأوروبية أن تقبل اليهود فيما بينها ، وأنه لا مجال للحل الصهيونى لأنه حل توسعى عسكرى إمبريالى ، وأن على المجتمع الدولى أن يتخلص من سيطرة الإمبريالية والرأسمالية والبورجوازية ، ففى تخلصه منها تحرير لنفسه من كافة الاضطهادات ، ومنها اضطهاد اليهود للمجتمعات المتمثل فى سيطرة المال – إله اليهود الدنيوى – على هذه المجتمعات .

ولقد كتب ماركس « عن المسألة اليهودية » سنة ١٨٤٤ ، وظهر مقاله

فى إحدى الصحف ، وكان وقتها يعمل مساعدا لرئيس تحريرها . وكانت آراء ماركس لم تتبلور بعد فى نظريته الاشتراكية ، ولكنه كان بسبيله إلى الاستقرار نهائيا . وكتب لينين عن مقالات ماركس فى مقال بعنوان « ببلو جرافيا الماركسية » يصف بحوث ماركس التى نشرها سنة ١٨٤٢ يقول :

« هنا نلحظ علامات تحول ماركس من المثالية إلى المادية ، ومن الديموقراطية الثورية إلى الاشتراكية » وتم هذا التحول بشكل حاسم خلال اشتغاله بالجريدة السابقة . وبينما نجد أن ماركس فى مقاله عن المسألة اليهودية ليس هو بعد ماركس الذى كتب البيان الاشتراكى سنة ١٨٤٨ ، فإنه مع ذلك كان قد بلور مفهومه عن المادية التاريخية ، ورأى ماركس أن حل المسألة اليهودية لا يمكن أن يتحقق إلا فى نظام اجتماعى أرقى من النظام الذى كان سائدا فى زمانه ، والذى حلله فيما بعد فى كتابه « رأس المال » .

وكتب ماركس مقاله فى فترة تحول ألمانيا من الإقطاع إلى الرأسمالية ، وأدرك ماركس وظيفة اليهود الاجتماعية والتجارية فى المجتمع الإقطاعى ، وأدرك الرابطة المهمة التى تربط اليهود بالطبقة البورجوازية الصاعدة ، والتى كانت تناضل فى ذلك الوقت للوصول إلى السلطة ، وأدرك أن المجتمع البورجوازى الجديد فى ألمانيا يقوم

على وظيفة اجتماعية ظل اليهودى يمارسها لقرون عديدة ، واستخلص من كل ذلك أن الوظيفة الاجتماعية . لليهود قد أبقت عليهم أحياء طوال كل هذا الزمن ، مع أنهم كما يقول توينبى من بعد ، شعب مندثر ، شأنهم شأن الأشوريين والأموريين والكنعانيين والكلدانيين ، وكانت وظيفة اليهود هذه وظيفة لها أهميتها فى مجتمعات الماضى ، واستمدوا منها بعضا من سمات هذه المجتمعات الأيديولجية المميزة لها ، الأمر الذى جعل ماركس يقول قولته الشهيرة « إن اليهودية عاشت ليس رغما عن التاريخ ، لكن بسبب التاريخ » .

ويعنى هذا الكلام أن الظروف الرأسمالية والبورجوازية أتاحت لليهود فرصة السيطرة على المجتمعات عن طريق المال والتملك ، وحيث توجد الرأسمالية لابد أن توجد اليهودية ، لأن جوهر اليهودية هو المتاجرة بالمال والربا . لذلك فنحن نرى أن تمرد اليهود بالاتحاد السوفيتى الآن ، وطلبهم للهجرة منه ، ومن دول أوربا الشرقية ليس سبب سوى أن اليهودى لا يمكن أن يوجد إلا حيث توجد الرأسمالية ، الأمر الذى بلغ باليهود الذين رفض الاتحاد السوفيتى تهجيرهم أن يشرع بعضهم إلى اختطاف الطائرات ، وأدى ببعضهم إلى المحاكمات وإلى التآمر لقلب نظام الحكم .

وإذا كان ماركس قد طالب بإلغاء الملكية تماما ، فنحن لسنا مع

ماركس . نحن اشتراكيون ، ولكن للاشتراكية أعلاما كثيرة ، ولقد اخترنا طريق الاشتراكية العربية الإسلامية التى تناسب ظروفنا والمرحلة الحضارية التى نحياها ، وتلتزم بثقافتنا الوطنية وديننا ، ومع ذلك نحن مع ماركس أن على كل مجتمع أن يلتزم باليهود الموجودين فيه ، ونرى لذلك أن تهجير الاتحاد السوفيتى لليهود ، أو سماحه بتهجيرهم ، تكتيك يتناقض مع الاستراتيجية الاشتراكية ، وأخلى الاشتراكية من مضمونها ، ويثبت أنه لم يستطع أن يعيد تعليم وتربية المواطن السوفيتى اليهودى ، ويصهر اليهود فى الاتحاد السوفيتى ، ويقنعهم بالتخلى عن المضمون والسمت اليهوديين ، ولو فعل الاتحاد السوفيتى والتزم بما يقوله ماركس لما كانت هناك هجرة يهودية منه ومن دول أوروبا الشرقية .

* * *

المسألة اليهودية

كارل ماركس

الجزء الأول

يهود ألمانيا يطالبون بالتحرر ، فبأى تحرر يطالبون ؟ إنه التحرر المدنى والسياسى .

ويرد عليهم « برونو باور »[1] بأنه : لا يوجد بألمانيا متحررون سياسيا ، ونحن ، الذين لسنا يهودا ، لسنا أحرارا ، فكيف نستطيع أن نحرركم ؟ إنكم ، أيها اليهود الأنانيون حين تطالبون لأنفسكم ، لكونكم يهودا ، بتحرر خاص ، وكان يجب عليكم بالأحرى أن تعملوا ، بوصفكم ألمان ، على تحرير ألمانيا سياسيا ، وأن تعملوا ، بوصفكم بشرا ، على تحرير الجنس البشرى . وكان يجب عليكم أن تنظروا إلى هذا النوع المتميز من الاضطهاد الذى هو اضطهادكم ، ليس بوصفه شذوذا عن القياس ، وإنما بوصفه تأكيدا لهذا القياس .

ويتساءل « باور » : أم أن اليهود يطالبون ببساطة أن يوضعوا على قدم المساواة مع رعايا الدولة المسيحيين ؟ وفى هذه الحالة فإنهم يعترفون بالدولة المسيحية . باعتبارها الدولة المشروعة ، ويعترفون

(١) المسألة اليهودية لبرونوباور

بأنهم نظام من نظم الاستعباد السائدة . وحينئذ نسألهم لماذا لا يرضون بنيرهم الخاص فى الوقت الذى يرضون فيه بالنير العام ؟ ولماذا ينبغى أن يبدى الألمان اهتماما بتحرير اليهود ، ما دام اليهود لا يهتمون بتحرير الألمان ؟

« إن الدولة المسيحية ليس فيها إلا الامتيازات ، واليهودى نفسه فى هذه الدولة يتمتع بامتياز وهو كونه يهوديا . وهو كيهودى له الحقوق التى ليست للمسيحيين . فلماذا يطالب اليهودى بحقوق لا يملكها ، حقوق يتمتع بها المسيحيون وحدهم لكونهم مسيحيين فى دولة مسيحية ؟

« واليهودى بمطالبته بالتحرر من الدولة المسيحية ، يطلب أن تتخلى الدولة المسيحية عن تحاملها الدينى ، فهل يتخلى ، هو اليهودى عن تحامله اليهودى ؟ وإن كان الجواب بالنفى فهل يحق له إذن أن يطالب شخصا آخر بالتنازل عن دينه ؟

« إن الدولة المسيحية ، بحكم جوهرها كدولة مسيحية ، لا تستطيع أن تحرر اليهودى » . ولكن « باور » يضيف « أن اليهودى بحكم جوهره كيهودى ، لا يستطيع أن يتحرر ما بقيت الدولة المسيحية وما بقى اليهودى يهوديا ، فكلاهما لا يمكن أن يصلح لمنح التحرر ، والآخر لتلقيه .

« إن الدولة المسيحية لا تستطيع أن تقف من اليهود إلا موقف الدولة المسيحية ، أى الدولة التى فى استطاعتها أن تمنح امتيازات ، وهى استنادا إلى إمتيازها هذا ، تسمح بعزل اليهودى عن سائر رعاياها . ولكنها تجعله يحس بثقل الجماعات التى عزلته عنها ، وبشكل حاد خصوصا لأنه يمثل المعارضة الدينية فى مواجهة الديانة السائدة . ولكن اليهودى ، رداً على ذلك ، لا يستطيع إلا أن يقف من الدولة موقف اليهودى ، أى موقف الأجنبى ، فهو يعارض القومية الحقيقية بقوميته الوهمية ، ويضاد القانون الحقيقى بقوانينه المتخيلة ، ويظن أن انفصاله عن سائر البشرية له ما يبرره ، ولا يشارك فى حركة التاريخ ، كمسألة مبدأ ، وينتظر ليحقق لنفسه مستقبلا ليس بينه وبين مستقبل الإنسانية شئ مشترك ويعد نفسه فردا من الشعب اليهودى ، والشعب اليهودى عنده هو الشعب المختار .

« وإذن فبأى حق تطالبون أيها اليهود بالتحرر ؟ أهو بسبب دينكم ؟ إن دينكم هو العدو اللدود لدين الدولة . فهل بسبب أنكم مواطنون فى الدولة ؟ إن الدولة لا يوجد بها مواطنون حقيقيون . فهل بوصفكم بشرا ؟ إنكم لستم بأكثر بشرية من أولئك الذين تستنجدون بهم .

* * *

الدين والدولة

وبعد أن نقد « برونو باور » الأوضاع القائمة والحلول المقترحة لها ، تناول المسألة اليهودية من زاوية جديدة ، وتساءل : ماهى طبيعة اليهودى الذى يسعى إلى التحرر ، وما هى طبيعة الدولة التى ستحرره؟

وأجاب « باور » بأنه نقد العقيدة اليهودية ، وحلل التعارض الدينى بين اليهودية والمسيحية ، وفسّر لنا شخصية الدولة ، وفعل ذلك كله بجرأة ووضوح وإتقان وعمق ، وبعبارة قد تميزت بالدقة والمتانة وحافلة بالمعنى .

فكيف يقدم « باور » حلّه لمسألة اليهود ؟ إن صياغته للمسألة نفسها تتضمن الحل ، فتحليل المسألة اليهودية يمدنا بحل ، ويمكن تلخيص حلّه كالآتى :

« يجب أن نحرر أنفسنا أولا قبل أن نستطيع أن نحرر الآخرين ، وإن أشد أشكال التعارض بين اليهودى والمسيحى لهو التعارض الدينى ، فكيف نحل التعارض الدينى ؟ والجواب بجعله مستحيلا . وكيف نجعل التعارض الدينى مستحيلا ؟ والجواب بإلغاء الدين . ومنذ اللحظة التى لا يعود اليهودى والمسيحى يريان فى دين كل منهما إلا

درجات متفاوته من درجات تطور العقل الإنسانى ، وإلا جلود ثعابين قد ألقى بها التاريخ ، لن يجد كلاهما نفسه فى علاقة دينية فى مواجهة الآخر ، وإنما سيجدان نفسيهما فى علاقة نقدية علمية ، يؤلف العالم فيها بينهما ، فى وحدة واحدة ، وتنحل من خلالهما التناقضات فى العالم بالعلم نفسه .

وتقوم أمام اليهودى الألمانى خاصةً مسألة قصور وجود تحرر سياسى فى دولة من المعروف أنها مسيحية ، ولكن « باور » يرى أن للمسألة اليهودية من وجهة نظره أهمية عامة مستقلة عن ظروف تواجد اليهودى فى ألمانيا . وهذه الأهمية العامة هى مسألة العلاقة بين الكنيسة والدولة ، ومسألة التناقض بين الارتباطات الدينية وبين التحرر السياسى ، وعندئذ يصبح التحرر من الدين شرطا يفرض نفسه على السواء ، على اليهودى الذى يطالب بالتحرر السياسى لنفسه ، وعلى الدولة التى من واجبها أن تحرره وتحرر نفسها

ويقولون ، واليهودى نفسه يقول « حسن جدا ، لكن اليهودى لا يجب أن يُحَرر لأنه يهودى ، وليس لأنه صاحب مبادئ أخلاقية متفوقة . والأصح أن اليهودى سيقف إلى جانب المواطنين الآخرين ويكون واحدا منهم رغم أنه يهودى ويريد أن يظل يهوديا ، ويعنى ذلك أنه يهودى وسيظل يهوديا برغم أنه مواطن يعيش فى ظروف إنسانية

عظيمة : وطبيعته المحدودة كيهودى تنتصر دائما فى النهاية ، حتي على التزاماته الإنسانية والسياسية ، وتبقى الفكرة الخاطئة ، حتى مع أنها تخضع لمبادئ عامة . ولكنها إذا كانت تبقى ، فإنها إذن تُخضع كل ما عداها ..

« إن اليهودى بوسعه أن يبقى يهوديا فى الحياة السياسية بمعنى سوفسطائى فقط ، فى الظاهر فقط . وبالتالى فإن كان يريد أن يبقى يهوديا فإن هذا الظاهر يصبح واقعا وينتصر ، ويعنى هذا أن حياته فى الدولة لن تكون إلا مظهرا ، وأنها استثناء من الواقع والقاعدة » .

ولننظر من ناحية أخرى كيف يحدد « برونو باور » مهمة الدولة حيث يقول :

« لقد قدمت لنا فرنسا مؤخرا [1] فيما يتعلق بالمسألة اليهودية ، وكما تفعل من ناحية أخرى فى كل المسائل السياسية الأخرى ، مشهدا من مشاهد الحرية فى الحياة . ولكن فرنسا تخرق حريتها فى القانون وتعلن هذه الحرية مجرد مظهر ، فى حين أنها من الناحية الأخرى تكذب قانونها الحر بما تمارس من أعمال » .

(Judenfrage, p . 64)

(١) مناقشات مجلس النواب لسنة ١٨٤٠ .

« إن الحرية العامة فى فرنسا لم تعلن بعد كقانون ، وكذلك المسألة اليهودية لم تحل هناك ، لأن الحرية القانونية التي تجعل كل المواطنين متساويين ، مقيدة فى الحياة التى ما تزال الامتيازات الدينية تحكمها وتسيطر عليها . وأيضا لأن نقص وجود الحرية فى الحياة الواقعية ينعكس فى القانون ويرغمه على التمييز بين المواطنين الأحرار فى طبيعتهم ، فتقسمهم إلى مضطهِدين ومضطهَدين » .

(Judenfrage, p. 65)

وإذن فمتى تُحَل المسألة اليهودية بالنسبة لفرنسا ؟

« إن اليهودى سيكف عن كونه يهوديا ، إذا كان قانونه لا يحول بينه وبين ممارسته واجباته تجاه الدولة ونحو مواطنيه ، مثلا إذا ذهب إلى جلسات مجلس النواب يوم السبت وشارك فى مناقشاته العامة . وعلى كل فالواجب أن تُلغَى كل الامتيازات الدينية ، ويعنى ذلك إلغاء الاحتكارات اتي تحصل عليها الكنائس ، فإذا كان بعض الناس يعتقدون ، أو إذا كانت الأغلبية الساحقة منهم تعتقد فى واجبهم تجاه تأدية الفروض الدينية ، فتأديتهم لهذه الفروض يجب أن يُمنَح لهم ، على اعتبار أنه أمر من أمورهم الخاصة تماماً

(Judenfrage P. 65)

« ولن يكون هناك دين عندما لا يكون هناك دين له امتيازات . جرّدْ الدين من قوته ، بوصفه شيئا متميزا ، يصبح لا وجود له » (Judenfrage. p 66) وكما أن السيد « مارتن دى ثور » ، أحس أن الاقتراح بإغفال ذكر يوم الأحد فى القانون ، هو إعلان بأن المسيحية لم يبق لها وجود ، فإنه يمكن كذلك استجابةً لهذا المبدأ نفسه ، الإعلان بأن قانون السبت بمثابة إعلان بأن اليهودية قد قضى عليها .

(Judenfrage p, 71)

وإذن « فبرونو باور » يطالب من جهة بأن يتخلى اليهودى عن اليهودية ، والإنسان عموما عن الدين كى يحقق لنفسه التحرر السياسى . ومن جهة أخرى ، وهذه نتيجة منطقية ، فإن الإلغاء السياسى للدين يعنى إلغاء الدين بوصفه هذا . والدولة التى تعتنق الدين تعد دولة لم تبلغ بعد مرتبة الدولة الحقيقية الواقعية . « والواقع أن الفكرة الدينية تقدم فعلا للدولة ضمانات . ولكن لأية دولة ؟ لأى نوع من أنواع الدول ؟ » .

(Judenfrage. P 97)